الدَّاروينيَّـــة
المُتأسلِمــة

مقدمة النسخة الثالثة

بسم الله الخالق ذي الجلال، بسم المبدع المستحق الحمد في المكره والمنشط، ثم الصلاة والسلام على رسول الله، محمد الصادق، سيد الخلق أجمعين، وآله وصحبه أجمعين.

فإنه لما كانت النظرية الداروينية هي مركز العلوم البيولوجية المعاصرة، وقلب ميزانها ونموذجها المعرفي الوحيد المُعترف به؛ كان من الضروري أن يتعرض طلبة العلوم البيولوجية المسلمون إلى استفزازات مستمرة في كلياتهم، خاصة إن درَّس لهم المادة البيولوجية أساتذة ماديون علمانيون وعلمويون، لهم وِتر مع الإسلام، وثارات مع نماذجه، نتاج تقديس الغرب ونماذجه، وغياب درك الفلسفات وتاريخ الأفكار وسياقات ظهور النظريات العلمية.

وقد كان تعرضي للجدال الإسلامي الداروني حادا منذ عام 2005، حينما كنت أدرس دبلوم الدراسات العليا في الكيمياء الحيوية بجامعة الإسكندرية، إذ أن أستاذ فسيولوجيا الأعضاء العجوز، الذي قيل لنا بأنه قضى أغلب حياته العلمية في أمريكا، كان دائم التعرض للنموذج الداروني، وكان عارفا بالفلسفة وراء الإيمان به، فكان يلح على أن من أوجب واجباتنا كباحثين علميين بيولوجيين أن نفصل العلم عن الدين، وأن هذا النموذج إن لم نؤمن به، فعلينا أن نعرف قصورنا العلمي، ولم يكن من المهاجمين الشرسين للدين، كبعض الأساتذة الآخرين العلمانيين الذين كانوا يبينون ازدرائهم للإسلام بتعمد استفزاز المنتقبات والملتحين وكل من يحترم الملة، بل كان يدعو إلى علمانية علموية محايدة، لا تزدري الدين؛ بل لا تأبه له إن شئت

الحق! فليقل الإسلام ما يريد، وليقل العلماء النقيض، وواجبنا أن نكون في صف العلماء وحدهم لا شريك لهم!

ولما لم أكن آبه بالخوض حينها في تلك الاستفزازات، لأن فارق السلطة بين الأستاذ والطالب في النظام الجامعي لا يسمح لنا بالمعارضة الحقَّة، ولا يقبل بالجدل الحاد، إذ كلما فلجت حجتك، كلما زادت فرص أن يحفظ أستاذُك اسمك، والويل لك حينها في النتائج النهائية للمادة / إلا أن ما صدمني ذات يوم، أنه قد استعان في دعم منطقه بكتاب الدكتور عبد الصبور شاهين رحمه الله، وكنت أعلم حينها طرفا مما يدور من معارك حول سقطته (أبي آدم)، فقال الأستاذ أن ها هو أحد علماء الشريعة قد ناصر التطور! وكنت أعلم أن موقف الأزهر مع أطروحته كان كعهدنا به - داعيا للفخر! - إذ أعلن أن رؤية الدكتور شاهين لا تخالف الشرع! ولم يأتنا هذا الإعلان بغير ما يتوقعه العالمون بالعاملين في تلك المؤسسة!

قال الأستاذ: إن كان هذا هو موقف الشرع؛ فلِمَ لا نسلم إذن للدارونية؟! فكان يطالبنا - بلسان الحال - أن نرفع الراية البيضاء؛ فإذا كنا ساخطين على طرحه القائل بوجوب انفصال الدين عن العلم؛ فها قد ظهر من يزاوج الدين بالعلم، والإسلام بالتطور، فلنأكل هنيئا ما أُولِمَ لنا!

وأحسب أن هذا الطرح لم يكن ذائعا حينئذ في الكلية، إذ جرت العادة على أن الأساتذة بين مسلمين محافظين يُدرسوننا تلك النظرية مع تعليقاتهم المحايدة إن لم تكن الرافضة، وإما علمانيين علمويين متعصبين يرون النظرية جزءا من كيانهم العلماني لابد أن يُدافَعوا عنه كفاحا، بل أظنهم كانوا يوجبون التركيز على مصادمته للدين الذي تشمئز منه قلوبهم، وتنفر عنه عقولهم. ولم أكن قد تعاملت

حينها مع النموذج الثاني، وكان نادرا في هذا الوقت، غير أن زوجتي، التي كانت تدرس حينها في قسمي النبات والكيمياء بنفس الكلية، قد تعرضت له غير مرة.

وقد طلبت من السلفيين والمتعضين عامة من هذا الطرح أن نذهب إلى الأستاذ في مكتبه ونناقشه، مستغلين طابعه غير الانتقامي في النقاش، وصبره الذي أذهب عدم خشيتنا من النتائج الوبيلة لمثل هذا الفعل، فذهبت إليه ومعي قلة، إذ أن السلفيين أغلبهم تراجع لأنهم كانوا يرونه نقاشا خاسرا، وأن الرجل سيدمر الحجاج بعلمه، ولا أنكر أن هذا رأي فيه وجه، حينما أنظر إلى المشهد من مكاني هذا بعد خمسة عشر عاما، لكن حمية الشباب والثقة العمياء بالنفس حملاني على الذهاب إليه في مكتبه وجداله، ولا جرم كان نقاشا أبتر، فبالرغم من أني ومعي زملائي قد جادلناه بصورة طيبة - وكان الرجل يجهل أبسط معارف الشرع، ما ساعدنا على التحكم في النقاش - إلا أنه قد وصل في النهاية إلى المقدمة الرئيسية التي خرج منها وعاد إليها: يجب فصل العلم عن الدين، والعلم مقدم لا ريب / وبان أن استعانته بكتاب الدكتور شاهين لم يكن سوى لإلزام المخالف بما يؤمن به، أي تقدير علماء الشرع ومؤسساته ممثلة في الأزهر، لا في إطار اعتقاد صحة كلام الرجل أصلا! وسترى حينما نتعرض لرؤية الدكتور شاهين في هذا الكتاب كيف أنها لا تدعم العلم ولا تنصر الدين، وستتأكد أن جمهرة اللائذين بها لم يقرأوا للرجل حرفا من الأساس!

وقد كان هذا أول صدام عملي في حياتي مع تلك النظرية، التي سميتها فيما بعد الدارونية المتأسلمة، ثم تلت ذلك مرحلة من الاشتغال بحياتي العملية، ولم أتعرض أثناء ماجستير الميكروبات لأستاذ علموي ولله الحمد، فبالرغم من أنه كان بين مبنى علوم الميكروبات ومبنى الكيمياء الحيوية شارع واحد في الكلية، إلا أن فارق العقليات والإيمانيات كان مرتفعا لصالح أساتذتي في القسم الأثير، قبل أن يُرجعني إلى

المعركة كتاب صنع دويا في الساحة الشبابية، اسمه (كيف بدأ الخلق)، كان قد كتبه الدكتور عمرو شريف، وهو طبيب مصري متخصص في الجراحة، ركز اهتمامه منذ العقد الأول للألفية على مناهضة الإلحاد، بخلطة متفلسفة علموية، فاغتر البعض بهذا المنهج، وظن أنه الأصلح لمناهضة العلموية العلمانية، أو الإلحاد الحديث المرتكز على العلوم بشكل عام، وقد جهر صراحة في هذا الكتاب بمعتقده المُقدِّس للداروينية، حتى ذمَّ علماء الأمة سلفا وخلفا، الذين تخاذلوا عن تحقيق أمر الله في قوله (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق)، واستندوا في حشو التفاسير إلى الإسرائيليات والخرافات، بينما حقق داروين - رضي الله عنه! - الآية، فطاف الأرض، واكتشف كيف بدأ الخلق، وجاء الدكتور لينبهنا بجلال قدر هذا الرجل العظيم، وصحة نظريته، وحماقة التراثيين، أي كل من تمسك بالتفاسير والسنن والإجماعات التي لم يخالفها بشر ولا حجر في أمة محمد قبل داروين، وكان الدكتور يستند في طرحه إلى الهيكل العام الذي صنعه الدكتور عبد الصبور شاهين رحمه الله.

فكان هذا هو الاشتباك الثاني لي مع تلك النظرية، وكتبت مسودة متعجلة نشرتها على الإنترنت، ولم أستطع إتقانها إذ تصادف وقت كتابتها مع الانقلاب، وإصابتي بنزيف من جراحة استلزمت بقائي مستلقيا فوق السرير، لكنني جلست إلى الجهاز وظللت أكتب لثلاثة أيام، فاحتد النزيف، وأفقت منه إلى الحادث الكبير، وبعد أشهر طويلة مظلمة لا أعادها الله، عدت إلى الاشتباك، وراجعت الهنات قبل إصدار النسخة الورقية الأولى، وقد كنت محتدا فيها على الدكتور عمرو شريف، ثم قرأت رأيه وتعليقه، وبمرور عامين كتبت طبعة ثانية أقل حدة، وأتقن من الأولى في بعض المواضع التي لم تُحقق بصورة كافية، ثم أني تابعت ما يصنعه الدكتور على

صفحته مع المتابعين عن كثب، وندمت على أسلوبي معه، لا في الطبعة الأولى، بل في الطبعة الثانية! فقد صدمني التدليس في إجاباته، وسبه المعارضات القوية بمنطق علماني متعجرف، ولم يتوقف عن ذم السلفيين باعتبارهم أبرز التراثيين، ثم أن من أتاه بما ينقض دعواه أن قوله عليه إجماع المجتمع العلمي وُكِزَ وغُمِزَ، ولم أسلم من تطاوله حينما تحديت ذات مرة أن يخبرني باسم مؤتمر واحد يناصر التطور الموجه، بشرط أن يكون عالميا محترما ذي جلال في الأوساط العلمية التي يسبنا من أجلها، وينسب نفسه إليها، فلم يجد سوى اسم واحد لمؤتمر اجتهدت في البحث عنه بالمواقع الكبرى والرئيسية دون جدوى، فعلمت أنه لا يخاطبنا نحن القادرين على البحث ومعرفة أي المؤتمرات العلمية تتوافر فيه تلك الأشراط وأيها لا ينطبق عليه حرف منها، بل يخاطب المتابعين العاجزين عن البحث، كما سيصنع بعد ذلك بعض العلمويين من مقدمي برامج البوب ساينس: ارم لجماهيرك اسم ورقة علمية، واسم مؤتمر علمي، وقل لهم أن يبحثوا عنه! لن يبحث أحد! الجماهير تريد التبجح بالقدرة، لا القدرة ذاتها! تريد أن تشهد زعمك أنك غالب قاهر، واتهامك غيرك بالجهل، ولن تقرأ حرفا في الأوراق التي وضعتها، ومن سيقرأ منهم لن يمتلك القدرة على البحث عن المزيد من الأوراق والتعرف على الخريطة الحقيقية لموضع هذا الزعم من الجدل العلمي، ثم لو علِم الموضع فليس من السهل أن يدرك لِمَ الموقف كذا أضعف ويُدافَعُ عنه، بينما الموقف كذا أقوى منطقيا ويُنبذ! وحتى من يصل منهم إلى ذلك العمق، نادرا ما يفقه الصورة الفلسفية الكلية الغربية التي ثار فيها هذا الجدل أصلا!

وفي الأعوام الأربعة الأخيرة، قابلت النظرية مرتين إضافيتين، أولاهما في دار العلوم، إذ أني لحظت أثناء دراستي مادة علم اللغة أن أستاذ المادة يقطع بالرأي القائل أن اللغة اصطلاحية، لا توقيفية، وكان المستند في ترجيح هذا الرأي كلاما تطوريا محضا،

فكأنما حسمت النظرية ذاك الجدل التراثي الشهير في علمي اللغة وأصول الفقه عن أصل اللغة، وحدَّثتُ في ذلك بعض من أعرفهم من أهل الدار، وطولِبت بأن أكتب عن ذلك، لكني نسيت أو تكاسلت، وقد ذكرت لهم إن الدارونية ذات أثر ظاهر في علمي الأصوات واللغة المعاصرين، فبسبب النقل عن النظريات الغربية، التي تدور كلها في فلك التطوُّر، قُدِّمت النظريات اللغوية الحالية كأنها مسلمات مقطوع بها، فيبدو للدارس كأنما كان علماء المسلمين المتقدمين يتناوشون لعلة الجهل، وأن الأمور حاليا مقطوع بها، وليس الأمر كذلك!

ثم كانت المرة الثانية في كلية العلوم السياسية، وكانت ممتدة، ولم تقتصر على مواد قليلة كما كان الحال في الدار، إذ يوشك التطور أن يكون عُمدة الأيدولوجيات كلها، وآثاره في كل ركن من نظريات العلاقات الدولية والاجتماع السياسي وعلم النفس السياسي وغيرهم. وكالمعتاد، يُسلِّم العديد من الأساتذة به كخلفية لشرح النظرية، مع أني رأيت أن بعض تلك النظريات، أو محتواها، يُمكِن التسليم به، دون ثبوت التطور أصلا، ولن تختل النظرية أو تسقط، بل ربما تتماسك بصورة أكبر؛ وشرح ذلك يطول!

أما عن باقي مجالات اهتمامي، كالمصريات على سبيل المثال، فمعلوم أنها مبنية كلها على نظرية التطور، بكافة أركانها، كالتطور الديني والاجتماعي والسياسي، إلخ.. ودونك، مثلا، حديث بعض علماء المصريات عن (اقتباس!) بني إسرائيل فكرة الحساب الأخروي من المصريين أثناء وجودهم الذي امتد لقرون بداخل مصر، ثم إدخال ذلك المفهوم في نماذج الأديان الإبراهيمية المتتالية، وصولا إلى الإسلام!

إن النظرية كالسرطان، ممتدة في كل موضع علمي بعالمنا الحالي، سواء كانت تلك العلوم بحتة، أو إنسانية، أو اجتماعية أو حتى لغوية وشرعية! ولا توجد دراسة دخلتها إلا ولمحت عرشها في الخلف، حتى لو كان مُحاطا بالظلال!

❖❖❖

ثم أني كنت قد قررت قبل عامين وضع نسخة جديدة للكتاب، ليست تعديلا لما سبق، كما بين الطبعتين الأولى والثانية، إنما هدم وإعادة بناء بصورة كاملة، لتحديث المصادر قدر الإمكان، وإصلاح المعايب الأسلوبية، وتغيير بنية الفصول بصورة كاملة، لتصبح أكثر وضوحا وبيانا، سعيا في النهاية لإصدار نسخة مُتقنة ترضيني ولو لأعوام خمسة لا غير- إذ أني أعتبر استمرار قنوعي بكتاب لي بعد خمسة أعوام هُجنة أعيب نفسي بها، فذاك يعني أن معارفي وأساليبي لم تتطور خلال كل تلك المدة! وعليه من الطبيعي أن لا يكون هذا الكتاب مرضيا للبعض، وأنا أرحب بكل نقد له ما دام ينطلق من أرضية مشتركة شرعيا، إذ أنني لا أوجه كتابي لملحد أو علموي بصورة رئيسية، فهذا أنصحه أولا أن يؤسس نفسه، ويرضخ لحاكمية الشريعة، وكمال الدين، ثم ليقرأ هذا السفر، أما أن يهجم عليه هكذا بلا تجذر في الإسلام، فلن يرضيه حرف كتبته بعد عنوان هذا الفصل: المقدمة!

والكتاب في صورته الجديدة غير منقطع الصلة تماما بالقديمة، فما زال مكوَّن من فصول ثلاثة رئيسية: أولها يعرض النموذج (البراديم) التطوري، فيبين منهج الدارونية المتأسلمة وظهورها، وثانيها يعرض النموذج التطوري في بعض صوره العملية، وقد اخترت الفيلوجيني والباليوأنثروبوجي تحديدا، وهو الفصل الذي تغير بصورة شبه كاملة عن النسخة الأولى بطبعتيها، وأعرض في ختامه للاستخدامات العملية لهذه النماذج في بناء الحجاج الداروني المتأسلم، ثم الفصل الثالث، وأعرض

فيه النقاش الشرعي لحجج الداروينية المتأسلمة، وكذلك كتاب أبي آدم للدكتور عبد الصبور شاهين، وأخيرا، الفصل الرابع، وهو فصل جديد، أعرض فيه ملامح النظرية الإسلامية للخلق والتطور، كي تكتمل الصورة تماما عند القارئ، إذ أنه قد يشعر في مرحلة ما أن المسألة فوضوية، وأن الجميع لا يملك صورة عن الخلق من الأساس، وذاك خطأ.

فأسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب المسلمين، وأن يكون من صالح الأعمال التي تسقط عني آثامي يوم القيامة، ولولا كثرة الذنب ما كان كثرة الاجتهاد!

وأسأل الله أن يفرج عن المسلمين، ويرحم قتيلهم، ويفك إسار الصالحين منهم، ويهدم بنيان الطاغين في كل مكان وزمان.

الفصل الأول: النموذج الداروني ومنهج الهرم المنكوس

تمهيد

في مستهلِّ ذلك الفصل، أوجز قصة ظهور الداروينية في العلوم، وأختار النسخة الأقرب والأصغر من الرواية، إذ أن هناك توجُّهين لسرد تاريخ فكرة التطوُّر، أو توالد الكائنات بعضها من بعض: الأول، توجُّه يُنقِّر عن أصولها منذ العصر اليوناني، وحضارة الإغريق، ولمحات تواجد الفكرة في التاريخ الفلسفي، على عادة الغربيين في نسبة كل فكرة عندهم إلى جذر يوناني أو روماني، فأناكسيمندر وإيمبيدوكليس هما من افتتحا فكرة التكيف البيئي، وديموقريطيس هو من أسس الاعتقاد بأن أصل الكائنات الحية كان مجهريات دقيقة، وهكذا (1) (2). والثاني، توجُّه يكتفي بالبدء من عند داروين، الذي استثمر الفكرة بصورة منهجية، وبعث فيها الحياة بأدلة مادية، وخرج منها بنظريَّة تامة، كما بدا في حينها، وهي النسخة التي أنشرها هنا.

1. الفتح الداروني

في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، شارك تشارلز داروين، دارس الطب سابقا، وعالم الطبيعيات حينها، في رحلة على السفينة بيغل، التي كان مقرر لها أن تطوف بحار العالم للاستكشاف، خاصة أمريكا الجنوبية.

صعد داروين السفينة، وفي ذهنه فكرتان، اختمرتا معا طوال الرحلة، الأولى وراثية من لامارك، الذي تعرف على أفكاره قبل سفره، أثناء دراسته في كلية الطب، وخاصة نظرية حدوث انحرافات وراثية عبر الأجيال Transmutation Theory، والثانية جاءت من الجيولوجي ليال، الذي تحدث عن نظريته (وحدة وتيرة التشكُّل Uniformitarianism)، وخلاصتها أن الأرض كان لها عبر تاريخها نظام واحد في التشكُّل، وأنها في الماضي كما في الحاضر، لكننا لا نلاحظ ذلك لبطء تلك الوتيرة. وقد زاد تقدير داروين لهاتين النظريتين أثناء رحلته، فما إن انتهى تجواله حتى بدأ في وضع نظريته عن الانتخاب الطبيعي: أن تنوع الكائنات صادر عن عوامل خارجية طبيعية، وأنها ذات أسلاف مشتركة.

وقد ظلت نظريته تدور بين عقله وأوراقه، حتى نهاية الخمسينيات، حينما أصدر كتابه الشهير الذي عرضها فيه مكتملة، مع عدم مناقشته لازم نظريته تلك، ألا وهو تطور الإنسان من سلف مشترك هو الآخر!

يمكن فهم جذور تأثره بالنظريتين السابقتين: فمن لامارك، أخذ فكرة الانحرافات الوراثية عبر الأجيال، وأن لا شيء يبقى على حاله مع التدخلات الخارجية، ومن ليال، أخذ فكرة ثبات قوانين الطبيعة في التشكيل، فهي في الماضي مثل الحاضر، لكن الملاحظة صعبة، بسبب عامل الزمن، وبالتالي تبدو فكرة التدخل القدري المفاجئ والمعجز في الخلق، شاذة عن الطبيعة، ومنفرة لعلمائها. ضع هاتين مع بعضهما، تعرف كيف نبتت الفكرة عند داروين!

وقد كان توماس هكسلي هو أول من مد النظرية على استقامتها، فأصدر عام 1863، بعد أربعة أعوام من ظهور نظرية داروين، كتابا تحدث فيه عن أصول الإنسان، وهو أول من اقترح التشابه بين الإنسان والقرد الأفريقي، وأول من تحدث

عن استعمال الحفريات الموجودة كأدلة وجود سلف مشترك للإنسان، على ندرتها في حينها.

وقد قطع داروين صمته في عام 1871، حينما نشر كتابا يتحدث فيه عن ارتباط أصول الإنسان بالحيوانات الأخرى، محاولا إثبات ذلك برصد التشابهات بين الإنسان وأشباهه في مملكة الحيوان، وخاصة القردة، وقد ناقش اختلاف الأعراق حينها متخذا من النظرية العنصرية التي كانت سائدة في عصره، والتي تجعل البيض هم الأرقى في سلم التطور، والسود هم الأدنى، أساسا لتفسير تطور الإنسان، فكان مما قاله إن الإنسان تطور من سلف هو شبيه قرد، وأنه صار يمشي على قدمين فقط بدلا من أربعة لاعتياده استخدام اليدين في إنجاز أعماله، وتوقع أن يكون الإنسان الحديث قد تطور في أفريقيا، ولكن افتقرت نظريته تلك إلى الأدلة الأحفورية المتنوعة، لذا تميز النشاط العلمي الطبيعي في نهاية هذا القرن باكتشافات تعضد هذه النظرية، ورفد داروين بما نقصه حينها، أي السجل الحفري المُنظِّم في نموذجه الخاص (البارادايم الناظم له) (3).

لكن لِمَ كانت نظرية داروين جذابة حينها بهذا الشكل؟! إن أوروبا خلال أعوام قليلة من ظهور النظرية صارت مهووسة بصناعة السجل الأحفوري وتزويده بالأدلة، في اجتهاد كثيف مدهش، لا يكاد يشابهه أي عمل آخر في الحقل العلمي بتاريخ البيولوجيا، فمثلا، يعرف كل عالم ميكروبات كيف كان البحث بطيئا في تخصصه، رغم أنه مدهش وضروري، ورغم أن أوروبا منذ لوفنهوك في القرن السابع عشر على الأقل وهي تعلم بوجود كائنات مجهرية؛ لكن مع ذلك ظل نمو هذا الحقل بطيئا حتى معركة باستير وكوخ! ما سبب هوس الغرب بداروين تحديدا وتبنيهم المجنون لنظريته في الأكاديميا؟!

لفهم هذا، لابد من إدراك السياق الاجتماعي العلماني لقرن داروين، قرن سيادة العلمانية والمادية، وجبروت الوضعية، واحتقار الغيبيات، والهوس بهدم كل معرفة دينية المصدر. فقبل داروين، كان العلم عاجزا عن تقديم تفسير كلي، ونظرية كبرى، لوجود المخلوقات وتنوعها، وحجم التعقيد في تركيبها، وكانت النظرية الوحيدة الموجودة هي ابنة الدين: أن الله قد خلق الكائنات، مباشرة، وأن صورتها متقنة وثابتة.

كما أن العالم التوراتي تحديدا، كان لديه مشكلة إضافية، لا نألفها عندنا، وهي أن أحد أركان نظرية الخلق التوراتية هو تقدير عمر الأرض بعشرة آلاف عام فقط - ومشكلة عمر الأرض هذه كانت من أوائل المواطن التي بدأت بسببها الحركة المضادة لتفسير الخلق التوراتي.

إذن كانت هناك مشكلة في الباراديم السائد، الموروث من معتقدات كنسية، لكن لم يكن هناك باراديم علماني حقيقي يقابله، وغابت عن العلوم الأحيائية النظرية الكبرى التي تجابه وتصمد. وكما يزعم توماس كون: عندما يصبح الباراديم القديم عاجزا عن ملاحقة الاكتشافات، ينتظر العلماء الوثبة المفاجئة إلى باراديم جديد، يحتفون به ويقدسونه!

وقد ظلت الساحة العلمانية فارغة من نظرية أحيائية لا دينية كبرى، إلى أن جاءت نظرية داروين، فزعمت أن كافة أنواع الكائنات لم تكن إلا من أصل وسلف مشترك، تطور عبر الزمان من كينونة بدائية، صعودا إلى كائنات أخرى أكثر تركيبا، ثم أن المولَّدات الأخرى قد تطورت وتكيفت مع بيئتها، لتُخرج أنواعا أخرى، تتطور بدورها، وهكذا. نشوء من أصل واحد، ثم ارتقاء بالتطور إلى تشكيل متنوع من الكائنات.

كان هذا بمثابة أعظم هدية للعلموية العلمانية في ذاك القرن الأنكد، إذ ملَّك العلماء مستندا علميا فيه بعض التماسك، يدعم قدرة العلم المادي على تفسير كل شيء دون الحاجة إلى غيبيات أو ميتافيزيقا تعتمد في تفسيراتها على وجود إله خالق أو قوى خفية؛ فالتفسير الذي ينال لقب العلمية، هو المشيد فوق فلسفات إلحادية قاطعة لا غيبية أو إلهية؛ وقد راج قبل هذا العصر المبدأ القائل بأن التفسير العلمي لا يكون عقلانيا، بل لا يكون علميا بحق، إلا بوضعه الطبيعة مكان الإله. إن جاذبية النظرية الدارونية هي في نقضها للنموذج الديني الموروث، وليس مجرد قوتها الذاتية.

كما أن الدارونية بدت سلسة على الأفهام، شافية لعيِّ العلموية، ولم يَفْضُلها غيرها في زمانها - وإلى اليوم - لبيان كيفية وجود المخلوقات دون تدخل إلهي غيبي. هكذا راجت ورسخت، حتى تحولت إلى المركز والنواة الصلبة لعلم الأحياء، بل وكل ما تحته من علوم، كالأجناس، والإحاثة، وغيرها، وما تداخل معه كالطب.

الآن، ما مصير أنصار النموذج (الباراديم) القديم، مُنكري التطور؟

بمجرد سيادة الدارونية، صُيِّر مُنكِرها نابذا لأحد أصول العلم الكبرى، ومُحجما عن التسليم لنواة حقل فسيح كعلم الأحياء، فكان من الطبيعي أن يضجَّ القوم بطلاق العلم والدين، إذ ظلت بذور التراث الديني باقية في التربة العلمية زمنا، ولم يجتثها بحق إلا تلك النظرية تحديدا، فلم يعُد لُغز الكون الأكبر هو نشوء الخلق، وتنوع المخلوقات!

وانحازت العقلانية الإلحادية لجانب العلم الطبيعي، وظهر المستمسك بالتفسير الديني للخلق في لبوس أهل الغباوة والتخلف، وإهاب التعصب العقدي السمج، وجموع فاسدي العقول كارهي تقدم العلوم، المؤمنين بتفسيرات سخيفة المصدر، واهية المبنى، عن نشأة الكون وتنوع المخلوقات / وقد بدأ القرن العشرون على هذا

الحال التعِس لسيادة الدنيوية والعلموية، وترسخ في الغرب عدم إمكان تلاقي العلوم مع نصهم المقدس، الإنجيل أو التوراة.

وبدخول هذه النظرية إلى بلادنا، أضيف الإسلام هو الآخر إلى قائمة الأديان غير المرحب بها، لصلابة التفسيرات القرآنية والسنية الواضحة في نشأة آدم عليه السلام بالذات، وإن كنا قد شاهدنا محاولة مبكرة لوضع النظرية كلها في إطار الإمكان الشرعي، من قِبل الشيخ محمد عبده - حسبما نقل عنه الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار (4)، غير أن هذا راجع إلى ولعه بالمنتوج الغربي في عصره، وهو الشيء المعروف عنه.

2. ظهور التطوُّر الموجَّه.

بمرور عقود القرن العشرين وتوالي المكتشفات، اهتز الإيمان بالتفوق المطلق للعلوم ويُسر تفسيرها لكل شيء، إذ كُشِفَ شِسْعُ المساحات المظلمة التي يعجز العلماء عن إبصارها، فقل الوثوق في العقلانية العلمية، وتمرد البعض على التعصب للوضعية الجامدة عامة، والنظرية الداروينية المُبسَّطة خاصة، وكان أن زادت القلاقل بثبات ارتباط العلم بالتفسيرات المادية الإلحادية، واستقرار هذه الهيئة للعلوم تاريخيا وواقعيا، في وقت شهد الغرب فيه صحوة إيمانية، حتى ظهرت محاولات إيجاد تفاسير تؤلِّف بين منتوجات الوضعية، العقلانية، وبين المعتقدات الدينية المسيحية واليهودية.

وقد انتبه المؤلفون إلى الثغرات التي تعاقَب ظهورها ببنية النظرية، والتي اضطرب البارادايم الداروني في معالجتها، فادعوا أن الأديان وحدها هي القادرة على سد فجواتها التي لم يفلح التطوير كثيرا في إخفاء رُقعها المتناثرة في أثوابها، ما بلي منها وما قشُب!

حينها صولِح في أحد الأركان بين الداروينية والدينين المسيحي واليهودي، تحت رعاية علماء من أشباه القساوسة أو الحاخامات، وظهرت إلى الوجود نظرية (التصميم الذكي)[1] التي استند إليها كثير من رواد هذا التوجُّه في صناعة نظريتهم الائتلافية (التطوُّر الموجَّه)؛ وفيها يُعترف بالتطوُّر كحقيقة علمية، وتُنفى عنه العشوائية بالتصميم الذكي، ويُستدلُّ من ذلك أن الإله قد قاد التغيُّر عبر ملايين السنين، ولم يخلق الكائنات المتنوعة دفعة واحدة.

إذن **التطور الموجَّه هو = (إيمان بالتطور + إيمان بإله) + الإيمان بالعشوائية.**

وقد كان من الطبيعي أن يتشبث العلمويون بأطروحتهم المادية، ويسخرون من عودة العلوم إلى أحضان الدين بقيادة عقلانية جديدة، ومع مرور الوقت ظهر أن جانب العقلانية[2] يميل إلى جانب أنصار (التصميم الذكي)، بينما بقي الجانب العلموي غير الإلهي داعما لكل تفسير ينصر التطور وإن وَهيَ منطقه، واضطرب حجاجه، وطاش سهمه.

غير أن النظرية لم تتأثر كثيرا مع انخفاض درجة العقلانية والتماسك، وذلك لعوامل ثلاثة:

أولا: بسبب طبيعة العلوم البيولوجية المعاصرة، المَسوُدَة من الوضعية، تلك العقيدة العلموية الرافضة لذكر الغيبيات في العلل، والمُحقِّرة من يُسبِّب بغيرِ ملموس مُقاس. وكما قال بيركلي قديما في مقالته المُقدَّسة عند جمهرة العلمويين الوضعيين: أن تكون موجودا، يعني أن تكون ملموسا esse est percipi.

---

1 **نظرية التصميم الذكي**، هي شكل حديث من حجج الإبداع، والتعقيد، والتناغم، المعروفين في نقاشات أدلة وجود الله سبحانه، وقد حاجج بهم الأنبياء، وذكرهم الله سبحانه وتعالى في كتابه الأعظم ولا تقتصر النظرية على أنصار التطور الموجَّه، بل يستخدمها المؤمنون بإله بصورة عامة في حجاجهم، سواء كانوا من أنصار الخلق الخاص، أم التطور الموجه، لكن في الإطار الجدلي، اعتاد الجميع الإشارة إليها، كمرادفة لاصطلاح التطور الموجه من الخالق.

2 لا أقصد في هذا الكتاب بالعقلانية سوى معنى خاص: وهو معقولية التفسيرات، وتلاؤمها منطقيا في بناء مُحكم.

وثانيا: بسبب الهيمنة العددية للعلماء التطوريين، والمركزية الثقيلة لهم في الأكاديميا.

وثالثا: بسبب طبيعة التنشئة العلمية للبيولوجيين على كون نظرية التطور بصورتها العلموية = حقيقة ثابتة لا ينازعها إلا سفيه، كحقيقة أن الشمس نجم ساخن.

وهي عوامل تدفع الباحث للفرَق من التحرك في غير إطارها، إذ يُدرك الحقيقة العملية مبكرا: أن تُقدِّمَ تفسيرا لمكتشفاتك وتجاربك، واهن البناء العقلاني، غير أنه يدعم النظرية، خيرٌ لك من تقديم ما يُخالفها مهما عظُمَ نتاجُك! وسنناقش كل ذلك بعد قليل، حينما نتعرض للمنهج.

بذا يمكن القول إن العقلانية والعلم قد انفصلا في هذه القضية[3]!

وحينئذ دارت المعركة التطورية - التطورية بين طرفين:

الأول والأقدم في الحقل المُعاصِر هو **العلموي** زاعم أن الطلاق بين الدين والعلم كان بائنا بلا رجعة، وأن العقلانية هي ما تلتزم هذا الطلاق / والثاني **ذو الديانة**، الذي يرى أن العقلانية الحقة توجب تكامل الدين والعلم، وإحالة إمكان انفصال أيهما عن الآخر.

---

3 أو بعدم الانفصال إن عُرّفت العقلانية بأنها ما لا يلتجئ إلى غيب، وهذا هو الأرجح عندهم.

3. مذهب الخلق الخاص.

هو أقدم المذاهب، وملخصه خلق الله سبحانه كل كائن على حدة، وأن الإنسان ليس ذو سلف أسبق، مع اختلافات بين النظرية الإسلامية والنظريات التوراتية، نبينها في فصل النظرية الإسلامية للخلق.

وقد طوَّرت تلك المجموعة حججها بالتصميم الذكي، ورفضت التطوُّر بكافة أشكاله، سواء للإنسان أو الحيوان، مؤكدة على التفسير التوراتي التقليدي لخلق الكون.

إذن، يتكون **المذهب الخلقوي في الغرب من الآتي = الخلق بالمفهوم التوراتي التقليدي + التصميم الذكي - (العشوائية + التطوُّر).**

وبإضافته تكون المعركة ذات المسارات الآتية:

مذهب التطوُّر الموجَّه ضد المذهب الخلقوي الخاص.

مذهب التطور الموجَّه ضد مذهب التطور العلموي.

مذهب التطوُّر العلموي ضد المذهب الخلقوي الخاص.

مع ملاحظة أن أنصار التطورية العلموية، يعتبرون التطور الموجَّه من جملة الخلقوية، ولا يتعاملون مع أنصاره إلا بنبذ وإغلاظ باعتبار نظريتهم ليست سوى محاولة ماكرة للالتفاف على الوضعية العلمية وعدائها الغيبيات.

تلك بإيجاز هي خريطة ساحة الصدام الغربي حول أصل المخلوقات الحية.

وبما أننا نعيش عصر التبعية العلمية، مفعول بنا، مضطربو الأفئدة، وجلون من المخالفة، فإن خالفنا فرِقنا من الجهر بالعصيان = فقد أُفدِحنا بمواطأة أناس منا ذاك الطيف النكِد، فصار بيننا من ينضوي إلى التطوُّرية العلموية، زاعما أن لا علاقة بين الدين والعلم، ومنا من يشايع التطوريَّة الموجَّهة، وأجزل كل فريق وسعه وبذل إطاقه في التنظير لما ختله الشيطان به فظنَّه الحق.

4. أسلمة التطوُّر الموجَّه.

تبعا لما جرى في الغرب، زوِّجت الدارونية عندنا بالإسلام، وقبالة من استوفزهم هذا الخطب، وكربهم اقتران بنت الإلحاد، بدين الحقِّ، عجَّلَ الدراونة المسلمون في نطق خبيثتهم الشهادتين، وتداولوا بين المسلمين كل فاسد من تأويل، لا هو بالضالِّ إلى الدارونية الكاملة، ولا هو بالثاوي إلى حيز الإسلام، وخرجت ربيبة التبعية، وعقيلة الهزيمة النفسية: الدارونية المتأسلمة!

غير أن اللائمة لا تُلقى على كاهل الضعف النفسي وحده، فالحق الذي لا ريب فيه أن الخلل والعي متأصل في سنخِ منهج أولئك المؤسلِمين.

ولن يتضح ذلك إلا بتمثيل لبنية المنهج الإسلامي الحق، ثم مقارنته ببنية المنهج المُلفِّق المضطرب:

أ. بنية العلوم البحتة في الإسلام: هي بنية هرمية متينة، ترسخ فيها الشريعة فوق سرير السيادة، أعلى هرم المعرفة، ويجلس عند قدميها كلا من العقلانية / المنطقية، بالمفهوم الخاص بهذا البحث، والمعرفة العلمية البحتة. ويعيش الباحث في قلب هذا الهرم، مطمئنا إلى أن أرؤسه لا تتنافر، وأضلاعه لا تهتز، فالعلم الصحيح مُحال أن يناطح العقلانية، وكلاهما مُحال أن يتناقض مع الإسلام.

شكل 1. هرم المعرفة العلمية في الإسلام.

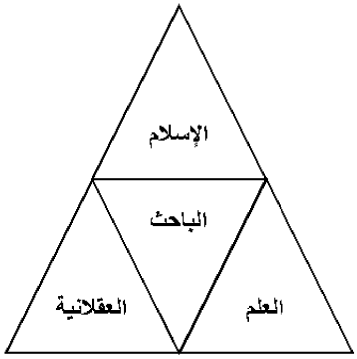

ب. بنية العلوم البحتة عند العلمويين المسلمين: أعاد أولئك تركيب تلك البنية، بقلبهم الهرم على رأسه، فصارت المعرفة العلمية البحتة في الأعلى، والعقلانية أسفل منها، ثم الباحث، وفي أخفض موضع بالبنية، أقعى الإسلام، ينوء بثقل الحمولة، وباضطرار الباحث إلى ضبط إياه دوما، وإلا اختل الارتكاز الضعيف لتلك البنية، وسقط الهرم كله، أو مال إلى غيره!

شكل 2. الهرم المنكوس للمعرفة العلمية عند العلمويين المسلمين.